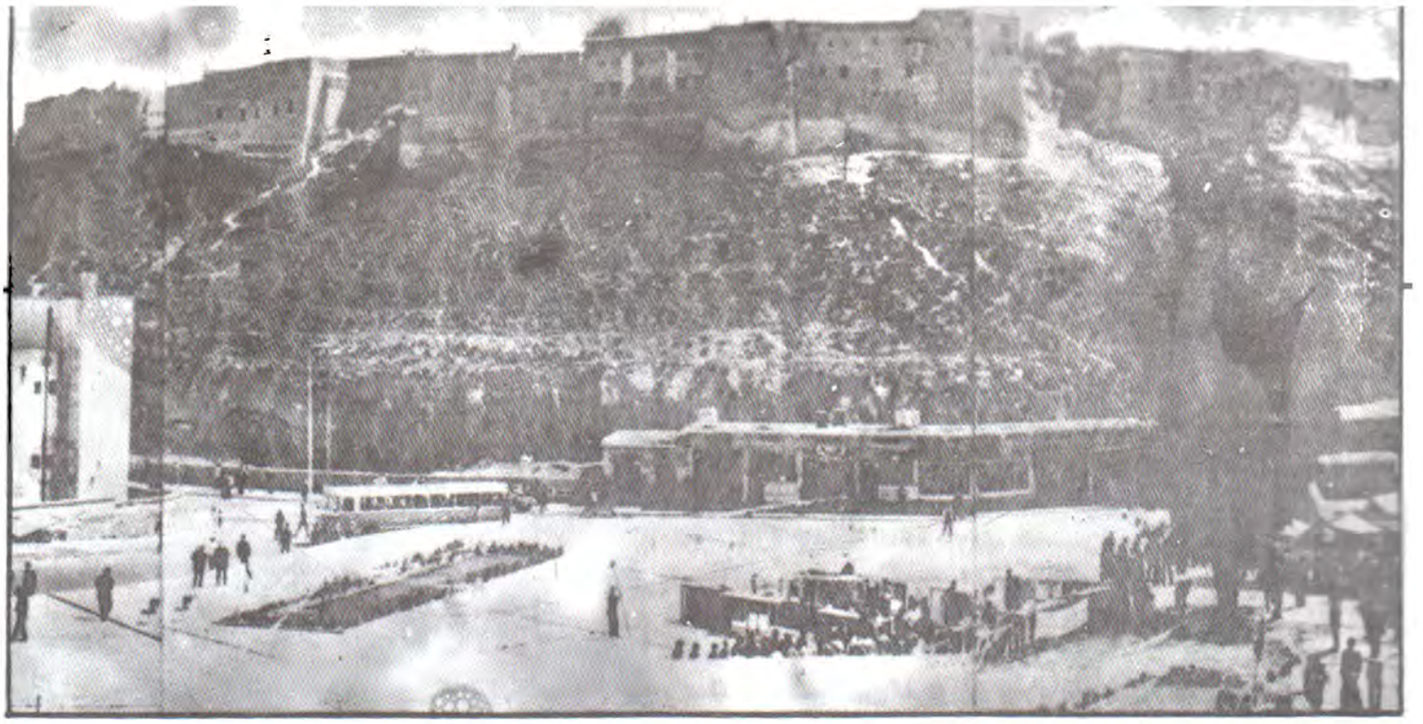

كيف نشأت قلعة أربيل الأثرية

المهندس كوهدار فتحي معصوم

إن حقيقة نشوء وتطور قلعة اربيل الأثرية تثير الكثير من التساؤل والنقاش . . . خصوصا وان هذه المسألة مايزال يحيطها الغموض وتكتنفها الأسرار . . . . ولقد أختلف المؤرخون والباحثون في اصل نشوء القلعة وتطورها وهذا الأختلاف ناجم أساسا عن ندرة وقلة المصادر والمعلومات التأريخية المتوفرة حاليا عن المنطقة ، بسبب قلة الآثار التي تم العثور عليها وأكتشافها في اربيل ، وقلة أعمال التنقيبات الأثرية التي جرت في الماضي ، أضافة الى حدوث متغيرات تأريخية عديدة مرت على المنطقة ورجوعها الى فترة قديمة من التاريخ .

وتقع القلعة في قلب المدينة ، والمدينة نفسها تقع في وسط سهل منبسط عموما ، وترتفع مدينة اربيل بمقدار ٤١٥ مترا عن مستوى سطح البحر . . . كما وتعد أثرا طوبوغرافيا بارزا ، حيث ترتفع الى علو ٢٥ و ٢٦ مترا ويعود تاريخ نشر القلعة الى خمسة الاف سنة قبل الميلاد اي ان عمرها التاريخي يبلغ سبعة الاف سنة ، وتشبه في شكلها شبه مخروط (مخروط ناقص) معدل قطر قاعدتها العليا يقدر بـ ٢٥٠ مترا وتبدو هذه القاعدة من الاعلى صحنيه الشكل وتبلغ مساحتها ٤٦ر٢٥٠ مترا مربعا . . . . أما قاعدتها السفلى فهي أقرب الى الشكل البيضوي منها الى الشكل الدائري أذ يتراوح قطرها بين ٤٣٠ مترا من الشرق الى الغرب ، وحوالي ٣٥٠ مترا من الشمال الى الجنوب .

وتشغل القلعة مساحة تبلغ ١١٠٠٠٠ مترا مربعا ذات محيط يصل الى ١٢٥٠ مترطول . أما درجة أنحدار سفوحها الخارجية فتتراوح بين ١ و ٥ر١ ، وتقدر كمية المواد الترابية التي تؤلف القلعة بما لا يقل عن ثلاثة ملايين ونصف المليون متر مكعب .

وهناك رأيان رئيسيان يعتبران من أبرز الآراء التاريخية المطروحة في حقيقة تكوين قلعة اربيل وينص الرأى الأول على انه (لما كانت اربيل تقع في منطقة سهلية لذلك فقد وجد سكانها انهم بحاجة الى بنا حصن قوي يسهل دفاعهم أمام الأقوام الغازية ويصد هجوم الأعداء ويمنع عنهم شر اولئك الغزاة . . . . . لذلك فقد قرروا أنشا القلعة) .

وهذا الرأي يتطلب تحقيق الأفتراضات التالية . . . (ان القلعة أنشأت بصورة أصطناعية وأستغرق بنائها عدة عقود من سنين العمل المستمر وشارك فيها عشرات الألوف من الرجال) . وهذه الأفتراضات تجرنا الى أفتراضات إخرى وهي ان عدد سكان اربيل في ذلك الوقت كان كبيرا جدا . بحيث تمكنوا من بناء هذه القلعة الكبيرة نظرا لكون اعمال التربة شاقة وصعبة ومكلفة وانه كان يحكم اربيل نظام حكم قوي استطاع تسخير الشعب لهذا الغرض . . . وقد نجح فيه نجاحا كبيرا ، كما وان وفرة الخير وتيسر المعيشة وتطور الأنسان وتقدم الحياة في مدينة اربيل هي التي جعلت سكانها يقررون الاحتفاظ بمدينتهم والدفاع عنها وعدم تركها أمام الاقوام الغازية والنزوح الى الجبال القريبة . ومن الحقائق الواضحة التي يستند عليها هذا الرأي هي (كثرة الهجمات للغزاة الطامعين على منطقة اربيل في تلك الفترة من الشرق والشمال ، بحيث كانت هذه الغزوات مستمرة ومتعاقبة على المنطقة بين الحين والاخر) .

وهناك من يعتقد ان القلعة بنيت على تل اصطناعي من قبل اسرى الحروب وشيدت بالدرجة الاولى لاغراض دفاعية حيث كانت بمثابة الحصن المنيع) .

أما الرأى الثاني فينص على ان (قلعة اربيل ناتجة من تراكم انقاض الدور السكنية المبنية من الطين خلال فترة زمنية طويلة تمثل الادوار التاريخية المتعددة التي مرت بها اربيل) .

ويقول العالم الاثري ادوارد كيرا[1] عن نشوء قلعة اربيل (لقد كان الناس في الشرق يعترسون السكن في الاراضي المستوية خوفا من حدوث الفيضان حيث كانوا يبنون كاحتياط تلا صغيرا من الطين لكي يرفعوا فوقه اساس البيت حتى يعلوا قليلا فوق مستوى سطح الارض فيقلل من تاثير الفيضان . . . . وكانت البيوت غالبا ما تبنى من الطين وفي كل سنة عند انتهاء موسم الامطار يتم تجديد طلي جدران البيوت بالطلا (الطين) من الخارج (لبخها) كما وتغطى السقوف بطبقة ثانية من الطين . اما كمية الطين المزاحة من الجدران والسقوف بفعل سقوط الامطار فستتر في الشوارع والازمة المجاورة مما تؤدي الى رفع مستواها وبمرور الزمن تحتاج هذه الدور الى صيانة وتجديد وبما ان تكاليف صيانة وتجديد بنا الدور الطينية عالية . . . لذلك يلجأ الانسان الى هدم داره وبنا دار اخرى فوقها . . . . اي فوق انقاض تلك الدار فيرتفع مستوى البيت اكثر في تلك الحالة وهكذا) .

اي ان هذا العالم يفترض ان ارتفاع مستوى البيوت سنة بعد الاخرى هو الذي ادى الى ارتفاع سطح القلعة ونشوئها .

وتعتبر النظرية الثانيه اكثر دقة وموضوعية ويمكن الاعتماد عليها . حيث انها تختلف عن النظرية الاولى بكونها تتطلب تحقيق افتراضات اقل فهذه النظرية تفترض ان نشوء قلعة اربيل انشئت منذ ما يزيد عن خمسة الاف سنة قبل الميلاد . وقد كشف التنقيبات والحفريات والاثرية التي جرت في قلعة اربيل صحة النظرية الثانية . كذلك اثبتت اعمال دق الركائز (البايلات) عند انشائها البوابة الجنوبية للقلعة صحة هذه النظرية حيث كانوا يجدون باستمرار الحفر اثار تعود الى الادوار الزمنية التي مرت عليها القلعة . وقد اتضح بان القلعة ناتجة من تراكمات الطبقات السكنية لعشرات الاجيال وعبر مئات السنين . واذا ماتخيلنا مقطعا عموديا في قلعة اربيل فاننا سوف نرى مجموعة من الطبقات وكل طبقة مكونة من تراكم مجموعة من الدور السكنية في الطبقة المجاورة فتي الطبقة الاولى من الاعلى يمكن ملاحظة الاقواس والقبب والنقوش السائدة في العهد الاسلامي في تراكمات الدور السكنية . وهذه الطبقة تمثل الاجيال التي عاشت في الفترة الاسلامية اما الطبقات التالية باتجاه الاسفل فهي تمثل تراكمات الدور السكنية للاجيال التي عاشت في الادوار قبل الاسلامية وعلى النحو التالي الساسانية والفرثية والرومانية والفارسية والميدية والاشورية والبابلية والاكدية والسومورية . . . ويعتقد بان اكثر هذه التراكمات تعود الى الفترة الاشورية حيث تشكل القلعة اثرا مهما من اثار الامبراطورية الاشورية المتاخرة على وجه التخصيص ، حيث يعتقد بانه كان هناك معبدان اشوريان رئيسيان احدهما لاشور والاخر لعشتار وكانا يولفان سوية هيكلا واحدا ، وقد ذكر ذلك في المدونات الاشورية . (وهذا شئ طبيعي حيث ان اربيل ازدهرت في العصر الاشوري الذي يمثل عصرها الذهبي الاول واتسعت فيا عملية البناء نتيجة لتطور الحياة) . . . ويطلق على الارض الاصلية التي تكونت فوقها القلعة أسم (الارض العذراء) والتي كانت الموقع السابق لمدينة اربيل قبل انشا القلعة عليا وفيا توجد معالم اربيل القديمة . . .

وتدين مدينة اربيل بأهميتها لقلعتها بالدرجة الاولى فقد اشار بعض الكتاب الى انه لولا وجود القلعة لتعرضت المدينة الى تحولات ليس في بنيتها أو خططها فقط بل في موقعها كذلك اذ ليس ثمة مايحول دون انتقالها الى مكان اخر اذ انها لاتقع على نهر يحول دون هذا الانتقال كما وانه لايحيط بها اي عائق كجبل لذلك فان القلعة حافظت على استمرار الحياة فيها ، بل وبقاء مدينة اربيل محتفظة بأسمها القديم . . . .

مما تقدم اعلاه يتضح لنا بان السر في نشو القلعة ومدينة اربيل في موقعها الحالي لم يكتشف بعد . . .

وانه ما يزال لغزا من الالغاز (٢) . . .

لذلك فان التنقيبات الاثرية المستقبلية في قلعة اربيل يمكن ان تكشف لنا الكثير من اسرار والغاز الماضي . (٣)

الهوامش

* هذا المقال جز من البحث العلمي الموسوم (افق تطوير التخطيط العمراني لمدينة اربيل) والمقدم الى ندوة (اربيل الماضي والحاضر وأفاقها المستقبلية) التي اقامتها جامعة صلاح الدين للفترة من ١٦-١٧ مايس ١٩٩٠ .

١ - أدوارد كيرا هو عالم أثري امريكي درس علم الاشوريات في جامعة شيكاغو حتى سنة ١٩٣٣ .

٢ - تم اكتشاف نفق سري اسفل القلعة في الجانب الغربي منها ومن المؤكد وجود انفاق سرية اخرى في الجوانب الاخرى من القلعة .

٣ - تؤكد الكثير من الدراسات على وجود صهريج كبير للمياه العذبة اسفل القلعة لتجميع المياه القادمة من بستورة على بعد ٢٢ كم بواسطة قناة في عهد الملك الاشوري سنحاريب (٧٠٥-٦٨١ ق.م) . . . حيث يتم سحب المياه من الصهريج الى اعلى القلعة . . . . . الاانه لم تعد اية دراسات تفصيلية لكشف أسرار وخفايا هذا الموضوع .

● سەر پەرشتکاری چاپ جعفر پەرزنجی
● دەرهێنانی هونەری عەزیز رەشید حەریری